الفصل الخامس

الحيـــوان
في الأسطورة العربية

(١)

ننتقل الآن من أسطورة المكان عند أديب العرب صورة الحيوان فى الأسطورة العربية وهى تدخل فى باب الحكاية الخرافية أكثر منها فى باب الأسطورة .

ويذهب الدارسون إلى أن حكاية الحيوان من أهم وأخطر صور العمل الشعبى عند كل الشعوب وفى كل الأزمان .

ويقول الدكتور عبد الحميد يونس عن حكاية الحيوان فى كتابه الحكاية الشعبية:

" يذهب بعض الدارسين على أن حكاية الحيوان أقدم الحكايات الشعبية على الإطلاق وهى تتردد على السنة الجميع بلا استثناء ، أنها موجودة فى كل بيئة وعند كل أمة وبين مختلف الأجيال والطبقات ... وقد استطاعت أن تحتل مكاناً ظاهراً بين الأشكال القصصية فيما يسمى بالأدب المثقف أو الأدب الرفيع ... وحكاية الحـــيوان عـــبارة عن شكل قصصى يقوم الحيوان فيه بالدور الرئيسى وهو امتداد للأسطورة بصفة عامة ولأسطورة الحيوان بصفة خاصة ويستوعب فيما يستوعب الخرافة وملحمة الوحوش " [1] .

وفى كـــتاب الأســـتاذ الكـــزندر هجرتى كراب علم الفولكلور الذى ترجمه الأستاذ رشدى صالح فصل كامل حول مأثورات الحيوان الشعبية .

---

(١) الحكاية الشعبية للدكتور عبد الحميد يونس .

ويؤكد هجرتي في هذا الفصل ترابط المأثور الحيواني عند كل الشعوب كما يؤكد الترابط بين المأثور الشعبي والابداع الفني التالي لها ... فيقول :

" أن وجـود المأثورات المثقفة والمأثورات الفولكلورية جنباً إلى جنب واضح كذلـك في مـيدان مأثورات الحيوان ... ذلك أن دراسة طبائع الحيوان ليست حديثة ... ورجال الدين في العصور الوسطى استخدموا طرائق التورية والتشبيه تحدوهـم في ذلك رغبتهم الشديدة في أن يستنبطوا المواعظ مما كان يتاح لهم من مواد تخدم أغراضهم ... وهكذا نجد أن الحيوانات الخرافية مألوفة فيما يتواتر من مأثورات العامة ، ومألوفة كذلك فيما كتب المثقفون عن الحيوان " [1] .

وهـذا الربط بين الأدب المثقف كما رأينا تسميته عند يونس وهجرتي وبين الأدب الفلكلـوري الشـعبي أو التلقائي يجعل لأدب الحيوان أهمية خاصة في دنيا الأدباء الذين تعرضوا للعمل الأسطوري أو الشعبي استفادة وإنتاجاً ...

فاسـتغلال الحـيوان للـتدين قديم منذ وجد الكهنة ومنذ وجد سدنة المعابد وأصحاب الحق في تربية الجماهير ممن اتجهوا إلى الحيوانات يرمزون بها إلى القدرات الخالقـة إثباتاً لقدرة الإله ذاته ... وأوضح الأمثلة على هذا الهند حيث تقدس الـبقرة حتى الآن ومصر الفرعونية حيث اكتسى الإله وجوه الحيوانات أو تقاسمت أجساد الإله أكثر من نوع من أنواع الحيوانات .

وقد عنى الدراسون بمحاولة الكشف عن العلاقة بين الأساطير من ناحية وبين حكايـات الحـيوان من ناحية أخرى ، وكادوا يجمعون على أن حكايات الحيوان موجودة في جذور ما تطلق عليه الآن الأساطير ، وإن كثيراً من الأساطير كانت في الأصـل تجسـيماً لقوى حيوانات بعينها ثم تطورت وأصبحت آلهة تحفظ بصورة

---

(1) علم الفولكلور لالكزندر كراب .

الحيوان أو برمز دال عليه وتلتقى الحكايات الشعبية بالأسطورة فى أن كلا منها يقوم بتفسير ظواهر عزت على العقل الإنسانى القديم ...

والواقع أننا لا نستطيع أن نعفى أسطورة الحيوان فى العالم كله من التأثير العربى أما بما قام به الأديب العربى من نقل للمأثور الهندى أو الفارسى إلى المأثور العالمى كله أو بما أبدعه العرب أنفسهم فى هذا الميدان إضافة وتضميناً ورمزاً وإذا كان الحيوان يعبد فى الهند أو فى مصر الفرعونية فقد كان للحيوان عند العربى منزلة خاصة ومميزة والدارس للأدب العربى القديم يدهش لهذه الثروة الضخمة من الأسماء التى أطلقت على كل صنف من أصناف الحيوان التى عرفتها الجزيرة العربية ... والدارس للأدب العربى القديم بعامة والجاهلى منه بصفة خاصة تستوقفه ظاهرة هذا الاهتمام المركز الذى يضفيه الأديب العربى القديم والشاعر الجاهلى بالذات على الحيوانات المستأنسة منها والوحشية . ولا تكاد قصيدة عربية واحدة تخلو من وصف الفرس أو وصف الإبل التى هى المطية إلى الممدوح والتى هى فى ذات الوقت جزء لا يتجزأ من سلاح الفارس الذى يشترك معه فى صنع النصر وفى الخوض فى دماء الأعداء ...

والواقع أن علاقة العربى بالفرس لا تظهر واضحة فقط فى كثرة الأسماء التى أطلقها عليها ولا على تعدد النعوت والألقاب الذى أضفاها عليها فحسب ، وأنما هى تظهر فى هذه الأهمية الخطيرة للفرس فى الحياة العربية نفسها التى خلقت مهنة خاصة امتلأت بذكرها وذكر أسماء أصحابها كتب الأخبار تلك هى مهنة " السلال " الذى يقوم بسرقة أجود الخيول من أمير أو شيخ من شيوخ القبائل ليدهيها إلى أمير آخر أو شيخ آخر ... واستطاع هذا السلال أن يكون شخصية لها خطرها عند أديب الأسطورة العربى الذى استغله أروع الاستغلال فى كثير من

القصص العربي المتداول ، كما استفاد منه فائدة كبرى في السير الشعبية بعامة وفي سيرة عنترة على وجه الخصوص ...

واستطاع الحيوان أن يتحكم في الحياة العربية إلى حد إثارة الحروب بسبب الفرس أو الناقة بين مختلف القبائل، تلك الحروب التي تستمر الأعوام الطوال ويسقط فيها العديد من القتلى ثم تبقى بعد هذا مجالاً خصباً لخيال أديب الأسطورة العربي . بل لقد ارتبطت أجزاء من التاريخ العربي بأسماء هذه الحيوانات كحروب داحس والغبراء والنوق والعصافير وغيرها ...

إلا أن وقفتنا هنا قد تبعدنا بعض الشيء من موضوعنا من الناحية المنهجية ولو أنه من الضروري تماماً أن نعود إلى هذه المسألة حيث أغفلها الكثير من الدارسين للأدب الشعبي العربي اكتفاء بالنقاط الرئيسية التي وردت في دراسات الانتربولوجيين ويلخص الدكتور عبد الحميد يونس موقفهم بقوله :

" يتضح لكل باحث في حكاية الحيوان أن وظيفتها الأولى هي التفسير وهي وظيفة ذات شعبية : الأول تفسير الظواهر المتعلقة بعالم الحيوان نفسه كأختلاف أشكالها وأحجامها ومشياتها وألوانها وصفاتها والثانية استغلال هذا العالم في تفسير ظواهر طبيعية واجتماعية لا علاقة للحيوان بها .

ويعرف أصحاب علم الأساطير هذا اللون من العمل الأسطوري أو الخرافي باسم الفابولات وهي أسماء تطلق اصطلاحياً على الحكاية الخرافية التي تخلع على الحيوان خصائص بشرية فتتصرف كالإنسان وتنطق الحكمة التي تخفي أحياناً كثيرة على الإنسان نفسه ...

ولعل أشهر المجموعات التي عرفها العالم للفابولات هي مجموعة خرافات ايسوب الإغريقية ولكن عالماً شهيراً من علما السنسكريتية هو تيود بن فاى انتهى من دراسته المتعمقة حول الفابولات بأن أرجع كل ما يرى في أوروبا من

حكايات خرافية إلى آسيا وبلاد الهند بصفة خاصة . إلا أنه يقرر أن القرن السادس الميلادى شهد أول تسلل على يد العرب من خرافات الهند عن طريق إيران ....

ويقع باحث عربى كالدكتور أحمد كمال زكى فى نفس المأزق حين يقول :

" على أننا نسلم بأن العرب فى طورهم الإسلامى كانوا هم نقلة فابولات الهند وذلك عندما نقل عبد الله بن المقفع فى القرن الثامن الميلادى (كليلة ودمنة) من روايات شعبية وجدت فى البصرة – التى كانت تسمى أرض الهند ... ومدونات إيرانية قيل أنها مترجمة من البنج تانترا والمهاجهارتا والفشنوسارنا الهندية، تماماً كما كانوا هم نقلة الصورة الأصلية لقصص هزار افسان أو (ألف ليلة وليلة) فى الفترة نفسها أو بعدها بقليل " [1] .

فواضح تماماً أن هناك تسليماً من كثيرين من دراسى الأدب العربى بهذا الافتراض الغريب افتراض قيام العرب بمجرد عملية النقل والترجمة كأنهم كانوا مكلفين من العالم الغربى بترجمة هذه النصوص الهامة ليتولى العالم استغلالها ... فكليلة ودمنة من أخطر الأعمال التى أثرت على الأدب العالمى كله ، فى شرقه وفى غربه بل أن ترجمة ابن المقفع فى رأيهم ونص ابن المقفع فى تسميتنا نحن هو الذى ترجمه بعد هذا إلى اللغة الفارسية نفسها ثم إلى باقى اللغات السامية بعد ترجمته إلى لغات أوروبا الحية . وفى ألف ليلة العربى فى تسميتنا نحن وترجمة ألف ليلة عندهم هى الأصل الوحيد الذى عرف عن طريقه أدب العالم بمختلف لغاته هذا العمل الهام والخطير والذى لعب دوره الهام فى تكوين وتشكيل الأعمال الأدبية والخيال الأدبى فى أكثر من مكان بل وفى كل مكان يعرف أصحابه الأدب ويهتم أصحابه بفن القص .

---

(1) الأسطورة لأحمد كمال زكى .

ومحاولة رسم دور الأديب العربي بالنسبة لهذين العملين بأنه مجرد دور المترجم أو الناقل قول نادى به فون جروينباوم فى كتابه حضارة الإسلام ...

" تكـــون الحضـــارة الإسلامية صورة من تكوين ألف ليلة وليلة ، فالحضارة الإسلامية توفيقية بحته تقوم على المزج بين عناصر متباينة ، وهى تظهر ، ما بها من قـــوة وحيوية بما يشفع على أيه عارية فعلتها بل كل عارية استعارتها — من صباغ خاص ولا سبيل إلى محاكاته " [1] .

ومتابعة الدارسين العرب لمثل هذه الأراء متابعة شاذة لا من وجهة نظر البعض القومـــى ولكن من وجهة نظر العلم البحث . فليس من العلم فى شيء أن يتصور الأدب وفـــن القصـــص على وجه الخصوص يمكن أن يعامل معاملة العلوم البحتة كالطب والكيمياء مثلاً فلا يكون هناك دور لمترجمة أو ناقلة إلا مجرد نقله وترجمته . ولـــيس مـــن العـــلم فى شيء كذلك أن يتصور الأدب وفن القصص على وجه الخصـــوص يمكـــن أن يعامل معاملة العلوم العقلية كالفلسفة والرياضيات مثلا فلا يكون هناك من دور للترجمة إلا اضافات الذهن والزيادات والحواشى العملية .

هذا الافتراض وذاك الظن مرفوضان تماماً ... لأن الفن أولاً لا يمكن أن تتم ترجمته إلى لغة إلا وقد التحم به المترجم كل الالتحام واعطاه من نفسه ووجدانه وقلـــبه ما هو إضافة للأصل بحيث يصبح النص المترجم هو النص الأصلى بإضافة الفنان الذى قام بالترجمة إلا أن الفن فى هذه الحالة على وجه الخصوص لـــه وضع متمـــيز (ثانـــياً) فلم يقل أحد أن ألف ليلة وكليلة ودمه قد نقلت أو ترجمت من نصوص معروفة متداولة ومتكاملة لم يكن للمترجم فيها إلا دور الترجمة والنقل . أنمـــا قيل أن النصين نقلاً أو ترجماً من بعض نصوص معروفة فى لغة أو فى أخرى .

---

[1] حضارة الإسلام لفون جروينباوم .

وقيل أيضاً أن الباحثين الذين درسوا هذه الأعمال وجدوا بعض الأصول الفارسية أو السنسكريتية فى هذه الأعمال يمكن أن ترد إلى أعمال عرفت بتلك اللغات فى عصور قديمة ولا بد أن مترجم ألف ليلة أو أن ابن المقفع فى كليلة ودمنه قد قام بترجمتها ...

والسؤال من الذى قدم هذه الأعمال بصورتها الكاملة ؟ ... والسؤال الأهم ... لماذا قدمها ؟ والسؤال الأكثر أهمية ... ما دور الفنان العربى أو الإسلامى فى هذا التقديم ... ؟ .

قرر ابن المقفع أن أصل كتاب كليلة ودمه أصل هندى ، واستطاع الدارسون المتخصصون فى اللغة السنسكريتية أن يعثروا على الأصول الأولى لبعض القصص فى كليلة ودمه فى مجموعات هندية مشهورة .

وابن المقفع هو أبو عمرو عبد الله روزبه بن المقفع تحكى كتب الأدب والتاريخ أنه قتل فى موقف غريب .

يقول أيوار محرر باب ابن المقفع فى دائرة المعارف الإسلامية :

" لما كلفه الخليفة المنصور أن يحرر ميثاق الهدنة بينه وبين عمه عبد الله ، أقحم بتحوير بعض الالفاظ على وجه لم يرض الخليفة فأراد أن ينتقم منه فكتب سراً إلى سفيان بن معاوية المهلبى عامله على البصرة أن يقتله لذنبه ، فقطعت ساقاه وألقيت الواحدة بعد الأخرى فى النار " [1] . بينما يذهب الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام نقلاً عن الجاحظ إلى أن ابن المقفع كان أغرى عبد الله بن على بالمنصور ففطن له وقتله [2] .

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية .

(2) ضحى الإسلام لأحمد أمين .

ويذهب الدكتور عبد اللطيف حمزة فى كتابه عن ابن المقفع إلى أنه قتل فى رسالة الصحابة التى أرسلها إلى المنصور ينتقد فيها حال الدولة ويقترح فيها وسائل الإصلاح [1] .

أما ايوار فأنه يذكر ف دائرة المعارف الإسلامية سببا أخر لقتله إذ يقول :

كـــان الشك يحيط بعقيدة ابن المقفع فاتهم بأنه كان ببطن المزدكية ، وكان هذا الشك من أسباب هلاكه [2] .

ويـــروى الجهشيارى إن سفيان بن معاوية لما أراد قتله لما بينهما من عداوة شخصـــية وبإيعاز المنصور قال لـــه والله يابن الزنديقة لاحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة .

ووقفتـــنا الطويلـــة هـــذه عند قصة مصرع ابن المقفع نريد منها أن نخرج بتكذيـــب كـــــل هذه الروايات عن مقتله لنذهب إلى أن ابن المقفع دفع دمه ثمناً لأول كـــتاب مـــن كتـــب الأدب القصصى العربى المرتبط ارتباطاً كاملاً بالتراث الأسطورى ... ولعل هذه الحقيقة تعطى لهذا الكتاب أهميته الحقيقية فى فن الكتابة العربية كلها ، كما تعطى ثقلها الحضارى لرجال الفكر العرب ولدورهم الطليعى فى الدفاع عن الفكر والتضحية من أجل حضارة الإنسانية وبقاء كرامة الإنسان . ولعـــل المـــنادين بالنظرة الجديدة إلى الأدب العربى يجهدون أنفسهم قليلاً فى جلاء الوجه المشرق لأدب العرب فى إضافاته الخلاقة والجادة لا للفكر الإنسانى فحسب وأنمـــا للمواقف الخالدة من أجل هذا الفكر وفى سبيل هذه الحضارة ... والذين أرخـــوا للحضارات فاتهموا الحضارة العربية أنما هم مغرضون مسلحون ، أعمتهم

---

(1) ابن المقفع للدكتور عبد اللطيف حمزة .

(2) دائرة المعارف الإسلامية .

أحقـــادهم عـــلى العرب وعلى الإسلام فلم ينظروا النظرة الصحيحة لعطاء هذه الحضارة وعطاء رجالها للدنيا كلها .

فنحن نرفض التبريرات التى قدمها المؤرخون لأسباب قتل ابن المقفع ونرجح عليها كلها أنه قتل لفكرة وموقفه الجاد من قضايا عصره ، وأبرز هذا الفكر وأهم معالمه هو كتاب كليلة ودمنه بدليل أنه ظل باقياً وبدليل أنه انتشر انتشاراً ندر أن يحظى كتاب عالمى مثله ...

فالحقيقة أنه لا يقتل أحد لأنه حور رسالة أو زاد فى عبارات عهد ، ما حور إلا لـــيؤمن عمه نفسه ... وكان الأولى أن يفتك بعمه لا بالكاتب الذى قيل أنه حور أو دس الفاظاً فى عهد الأمان . ثم أن الخليفة لو أراد قتله لقتله فى بغداد ولم ينـــتظر ليرسل سراً إلى عامله سفيان بن معاوية فى البصرة ليقتله ، ولم يكن الخليفة يحـــتاج إلى كل هذا اللف والدوران فبغداد تحت أمره وهو مطلق الحكم فيها تماماً كالبصرة وهذا الانتظار حتى يصل ابن المقفع إلى البصرة يكشف عن جزء كبير من زيف الراوية ....

أما تهمة الزندقة فكانت تهمة شائعة تلقى على من يراد إباحه دمائهم لتكون سنداً لإجراءات العنف التى تتخذ . وابن المقفع كان مجوسياً طوال عمره إلى قبل وفاته بسنين قليلة ثم دخل الإسلام فى وضوح وهو حين استبدل دينا بدين لم يكن هذا طمعاً فى دنيا أو رهبة من سلطان بل كان هذا بمحض إرادته فقد وصل إلى ما وصل إليه من مكانة قبل إسلامه ووصله بعلمه وثقافته وخلقه وقلمه وجرأته على إيضاح فكره ...

يقول الدكتور أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام :

" نشأ ابن المقفع مجوسياً زرادشتيا ، وقضى زهرة شبابه فى أحضان المجوسية مـــثقفاً بثقافتها ولم يسلم إلا قبل قتله ببضع سنوات ، بعد أن تكوّن ونضج وتقلد

الكتابة للكثيرين ، وكان قبل إسلامه متمسكاً بدينه ، فلما أراد أن يسلم قال له عيسى بن على عم المنصور : ليكن ذلك بمحضر من القواد ووجوه الناس فإذا كان الغد فأحضر . ثم حضر طعام عشية ذلك اليوم ، فجلس يأكل ويزمزم على عادة المجوس ، فقال عيسى أتزمزم وأنت على عزم الإسلام ، فقال أكره أن أبيت على غير دين ؟ فلما أصبح أسلم على يده فسمى بعبد الله ... " [1] .

ومثل هذا الخلق لا يبطن غير ما يظهر ، ولا يعلن إسلاماً لم يكن فى حاجة أو تحت سطوة رهبة حين أعلنه ثم يخفى مجوسية أو زندقة كان يسير بها بين الناس دون أن يضار ودون أن تؤثر فى مكانته من الناس ... وقد ناقش الدكتور أحمد أمين هذه النقطة بإخلاص وحرارة فقال :

" أشتهر رمى ابن المقفع بالزندقة ومن أقدم النصوص على ذلك ما حكى عن الجاحظ أن ابن المقفع ومطيع بن إياس ويحيى بن زياد كانوا يتهمون فى دينهم ، ويروى أن المهدى قال : ما وجدت كتاب زندقة إلا واصله ابن المقفع ... ونحن نعلم من حياة ابن المقفع أنه قضى أكثر حياته وهو مجوسى ظاهراً وباطناً ، ولم يسلم إلا وهو كاتب عيسى بن على ، ولم يعمر بعد إلا سنين قليلة وهو من غير شك لايؤاخذ على زندقته وما ألف فيها . أن كان قد ألف — قبل أن يسلم ، وأنما يؤاخذ على ما ألف أو قال بعد إسلامه فالإسلام يجب ما قبله ، ولم ينص هؤلاء الرواة على أنه قال أو ألف كتاباً فى الزندقة بعد إسلامه " [2] .

وهذا الحرص على تهمة الزندقة مرة وعلى تهمة الانتماء إلى الفرس مرة أخرى محاولة لحجب حقيقة وأهمية ابن المقفع كواحد من أخطر الأعلام فى تاريخ الفكر العربى بخاصة والفكر الإنسانى كله بعامة ، أما خطورته على الفكر العالمى

---

(١) ضحى الإسلام لأحمد أمين .

(٢) المرجع السابق .

فتتشـــح مـــن قائمـــة ترجمات وطبعات كليلة ودمنه التى أوردها الأستاذ كارل بروكلمان ونقلت فى ترجمة الجزء الثالث من ترجمة كتابه تاريخ الأدب العربى ... ويقول :

" نشر دى ساسى كليلة ودمنه فى باريس عام ١٨١٦ ، ونشر بدون ترجمة لكلـــيلة ودمنه فى شتوتجارت بالألمانية عام ١٨٣٧ ، ونشرت هذه الترجمة للمرة الثانـــية فى شتوتجارت أيضاً عام ١٨٣٩ ... ونشر كتاب كليلة ودمنه أيضاً فى شتراســـبورج عام ١٩١٢ بترجمة نولدكه وهنـــــاك مخطوطات لكليلة ودمنه فى المـــتحف البريطانى ومخطوطات أخرى فى آيا صوفيا ، ونشر لويس شيخو الكتاب عـــن مخطـــوط أقدم عهداً من الذى أعتمد عليه دى ساسى ... ونشر الكتاب أيضـــاً فى بـــولاق وبـــيروت فى أعوام ١٨٨٧ ، ١٨٨٢ ، ١٨٩٠ ، ١٨٩٢ ، ١٩٢٧ ، ١٩٠٨ ونشر فى الموصل أعوام ١٨٦٩ ، ١٨٨٣ ، ١٨٩٧ ، ونشر فى بومـــباى عام ١٨٨٧ وفى قازان عام ١٨٨٩ ، وهذه النشرات ليست حصراً كـــاملاً كما نشرت ترجمة أنجليزية فى أكسفورد عام ١٨١٩ ، وفى إيطاليا فى سان ريمو عام ١٩١٠ ، ونشرت ترجمة روسية فى موسكو عام ١٩٣٤ ، ونشرت لـــه ترجمة فرنسية سنة ١٩٣٦ فى باريس "[1].

ومن الواضح أن هذا الأهتمام العالمى بهذا الكتاب ليس عبثاً وأنما هو إثبات لحقيقة أهميته وتأكيد لمدى خطورته وتأثيره على الفكر العالمى كله ، فليست هناك لغة حية واحدة لم تتعرف الأدب العربى والقصص العربى من خلال ترجمة كتاب ابن المقفع كليلة ودمنه ... أما تأثيره على الفكر العربى فنعود إلى الأستاذ بروكلمان لنتعرفه حيث يقول :

---

(١) تاريخ الأدب العربى لكارل بروكلمان جـ ٣ صـــ ٩٨ .

" نظم كليلة ودمنة أبان اللاحقي وابن الهباوية وعبد المؤمن بن الحسن بن الحسين الصاغاني ونظمها أيضاً جلال الدين الحسن بن أحمد النقاش " [1] .

ويكمل لنا الصورة الدكتور أحمد أمين إذ يقول :

وقد كان لكتاب كليلة ودمنه أثر كبير في الأدب العربي وفي غيره من الآداب ، وعنى الناس به عناية كبرى وحذوا حذوه ... فابن الهبارية ألف على منواله كتاب الصادح والباغم وكذلك الف على منواله كتاب سلوان المطاع في عدوان الطباع لأبي عبد الله محمد بن أبي القاسم القرشي المعروف بابن ظفر صنفه لبعض القواد في صقلية . وكذلك ألف على هذا النسق ابن عمر بشاه كتابه فاكهة الخلفاء ومناظرة الظرفاء وكتابه مرزبان نامه . ويذكر كشف الظنون أن أبا العلاء المعرى ألف كتاباً أسمه القائف على مثال كليلة ودمنه وهو في ستين كراسة ولم يتم ... وأن له كتاب منار القائف يتضمن تفسيره في عشرة كراريس [2] .

وليس من شك أن كتاب كليلة ودمنة يعد من أخطر نقط التحول في تاريخ الأدب العربي وأن كان دارسو الأدب العربي لم يلتفتوا إلى أهميته الالتفاف الكافي بناء على حكم متسرع أصدروه وهو أن هذا الكتاب كتاب مترجم عن اللغة الفهلوية التي نقل إليها عن اللغة الهندية أي السنسكريتية القديمة ولهذا الحكم المتسرع سببان :

السبب الأول : ما أورده ابن المقفع من تعبير أثار اللبس وحقق عند الناس معنى الترجمة وغلبه على حقيقة أمر الكتاب من أنه تأليف إذ يقول في المقدمة :

---

(1) المرجع السابق جـ ٣ .

(2) المرجع السابق جـ ٣ .

هذا كتاب كليلة ودمنة وهو مما وصفه علماء الهند من الأمثال والأحاديث التي ألهموا أن يدخلوا فيها ابلغ ما وجدوا من القول في النحو الذى أرادوا . ولم تزل العلماء من أهل كل ملة يلتمسون أن يعقل عنهم ، ويحتالون في ذلك بصنوف الحيل ويبتغون إخراج ما عندهم من العلل حتى كان من تلك العلل وضع هذا الكتاب على أفواه البهائم والطير [1] .

وواضح أن عبارة ابن المقفع لو درست وحللت لم يتضح منها ما ذهب إليه الدارسون واجتهدوا أن يتبنوه على مر التاريخ فابن المقفع يقول أن مصادر حكايات الهند كما عرف شكسبير كانت مصادره الحكايات الشعبية والإيطالية منها بوجه خاص ولم يقل أحد أن عمل شكسبير الأدبي مجرد ترجمة وأن عرفت أصول القصص التي أستوحى منها مسرحياته وكذلك الأمر لا شك بالنسبة لابن المقفع، فالشكل الذى قدمه ابن المقفع ليس ترجمة بالمعنى العلمي الدقيق لهذه الكلمة وأنما هو تأليف أدبي بالمعنى الواضح المعترف به في دنيا الكتابة القصصية والروائية بوجه عام ... وقد اختار ابن المقفع الشكل القصصى ولهذا فقد ابتدأ بأن جعل للكتاب فصل يقول في باب برزديه :

قال برزديه رأس أطباء فارس وهو الذى تولى انتساخ هذا الكتاب وترجمه من كتب الهند أن أبي ... ولا يعدو هذا القول ما اصطلح كثير من القصاصين من اختلاقه من حكاية للحكاية نفسها ولعل أقرب الأشياء شبها بهذا كتاب أخبار ملوك اليمن لعبيد بن شريه الجرهمي الذى بداه مؤلف بحكاية طويلة عن طلب معاوية لأحد المعمرين ممن يعرفون أخبار الملوك البائدة فجاؤه بعبيد بن شريه آخر الجراهمة الذى أخذ يحكى ومعاوية يسمع ثم يسير الكتاب على هذا النسق ...

(1) كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع .

ولـــيس هذا النحو بغريب إن جرت العادة على نسبة كل شيء إلى سند واشـــتهرت مســـألة تزوير الأسانيد وهنا اختلق ابن المقفع سنداً قصصياً فذا حتى أصبح كالحقيقة عند الكثيرين ... بل عند الكل ... وقـــد جـــاء تعبير ترجمة ابـــن المقفـــع عـــلى السنة المؤرخين فصارت كالحقيقة ولكننا نجد أن ابن النديم في الفهرســـت يقـــول عـــن كتب ابن المقفع الأخرى الأدب الصغير والأدب الكبير واليتيمة أنها من ترجمة ابن المقفع [1] .

ويسارع الدكتور أحمد أمين إلى نفي هذا فيقول :

والمعروف بين الأدباء والظاهر من تعبيراته أنه الفها [2] .

ولسنا ندرى لماذا لم نلصق صفة الترجمة بهذه الكتب رغم أنها أيضاً من نتاج ثقافة ابن المقفع الفارسية واليونانية ويقول الدكتور أحمد أمين :

" هـــل هما مؤلفان أو مترجمان ؟ نفس الكتابين يدلاننا على أن ابن المقفع لم يترجمهما حرفياً كما نفهم من معنى الترجمة وأن كان اعتمد في كثير من المعاني على معاني الأقدمين .

ومـــا قاله ابن المقفع عن كليلة ودمنة وأنه من وضع علماء الهند قال شبهه عن الكتابين الأخرين فيقول عن الأدب الصغير :

" قـــد وضعت في هذا الكتاب من كلام الناس المحفوظ حرفياً ، فيها عون عـــلى عمارة القلوب وصقالها وتجلية أبصارها وإحياء للتفكير وإقامة للتدبير ودليل على محامد الأمور وكارم الأخلاق [3] .

---

(1) الفهرست لابن النديم .

(2) في ضحـــى الإســـلام .

(3) الأدب الصغير لابن المقفع صـــ ١ .

وقال فى الدرة اليتيمة أو الأدب الكبير وهما تسميتان لكتاب واحد ...

يقول ابن المقفع :

" إنا لم نجدهم – أى الأولين – قد غادروا شيئاً يجد واصف بليغ فى صفته لـه مقالاً لم يسبقوه إليه ، لا فى تعظيم الله عز وجل ، وترغيب فيما عنده ، ولا فى تصـغير للدنـيا وتزهيد فيها ، ولا فى تحرير صنوف العلم وتقسيم اقسامها وتجزئة أجزائها وتوضيح سبلها وتبيين مآخذها ولا فى وجوه الأدب وضروب الأخلاق فلم يـسبق فى جليل الأمر لقائل بعدهم مقال ... وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن مشتقة من جسام حكم الأولين وقولهم ... ومن ذلك بعـض ما أنا كاتب فى كتابى هذا من أبواب الأدب التى يحتاج إليها الناس [1]. ولم يـأخذ أحد كل هذا دليلاً على أن ابن المقفع قد ترجم باقى كتبه كما أصروا على الحكم على عمله فى كليلة ودمنه ...

والأهمـية الكـبيرة التى نعلقها على إثبات تأليف ابن المقفع لكتاب كليلة ودمنه ترجع إلى أن هذا الإثبات سيتيح لأديب الأسطورة عند العرب مكاناً حقيقياً مرموقاً ويجعل دوره من الأدوار الأساسية والهامة فى تاريخ الأدب العالمى كله لا فى تاريخ الأدب العربى وحده .

والواقـع أن دراسـة الدكتور أحمد أمين لابن المقفع وقد سار على نهجها الدكـتور عـبد اللطيف حمزة فى كتابه ابن المقفع على قيمتها وعمقها لم تجد داعياً لمناقشـة هذه النقطة على أهميتها ، وربما كان الأمر أن الدارسين فى مطلع النهضة الأدبـية فى عصر الأحياء الحالى لم يلتفتوا إلى أهمية أدب القصة ولم يحاولوا مناقشة أحكام المستشرقين من ناحيـة والمؤرخين القدمـاء من ناحية أخرى فى هذا الموضـوع ... ومـع هـذا فقد وقع الدكتور أحمد أمين على رأى هام فى أثناء

---

[1] الأدب الكبير لابن المقفع .

دراسته يؤكد الرأى الذى تذهب إليه ويدعمه ويجعل من عمل ابن المقفع فى كليلة ودمنة تأليفاً خالصاً كما يجعل من هذا الكتاب السر الحقيقى وراء مصرعه فهو يقول فى صحى الإسلام :

" يظهر أن تعمق ابن المقفع فى دراسة الحياة الاجتماعية أداه إلى استنكار كثير من الأمور ، ورأى أن معظمها يرجع إلى حكام عصره ، ورأى أن الحرية السياسية غير متوافرة فى زمنه ، فهو لا يستطيع أن ينقد الخليفة وبطانته نقداً صريحاً. وقد عاش ابن المقفع وقت نضوج فكرة فى زمن أبى جعفر المنصور وهو شديد البطش ، سريع إلى أعمال السيف وهو كان مؤسس الدولة العباسية وواضع نظمها ومحصنها ، وكان يرى ألا يمكن تثبيت قواعدها إلا بإخماد كل حركة تضعف من شأن الدولة ، أو يتوهم فيها ذلك ، ويقطع رأس كل مخالف ، وكان من ضحايا المنصور كثيرون قتلوا بالظنة ، وتذرع فى قتلهم بالاتهام بالزندقة أو نحو ذلك وكان ابن المقفع نفسه احد هذه الضحيا ... " .

ولعل ابن المقفع رأى أن موقفه من المنصور موقف بيدبا مع دبشليم ، فقد جاء فى مقدمة الكتاب :

" فكما استوثق لدبشليم الأمر واستقر له الملك ، طغى وبغى ، وتجبر وتكبر ، وجعل يغزو من حوله من الملوك ، وكان مع ذلك مؤيداً مظفراً منصوراً ، فهابته الرعية فلما رأى ما هو عليه من الملك والسلوة ، عبث بالرعية واستصغر أمرهم ، واساء السيرة فيهم وكان لا يرتقى حاله إلا غزداد عتواً ، فمكث على ذلك برهة من دهره ، وكان فى زمانه رجل فيلسوف من البراهمة ، فاضل حكيم يعرف بفضله ، ويرجع فى الأمور إلى قوله يقال له بيدبا ، فلما رأى الملك وما هو عليه من الظلم للرعية ، فكر فى وجه الحيلة فى صرفه عما هو عليه ، ورده إلى العدل والإنصاف ... " .

ويقول الأستاذ أحمد أمين :

" فلعل ابن المقفع لم يستطع أن يواجه المنصور بأكثر مما واجهه به فى رسالة الصحابة ، وقد مزج نقده - فيها - بكثير من المدح للخليفة والثناء عليه ، ونسب أكثر الشدة التى يرأها إلى غيره ، ولكن هذا لم يشف غلته ، فرأى أن اسلم طريقة أن يترجم هذا الكتاب ويزيد فيه ليعمل الكتاب فى الخلفاء والرعية ، فعلة كليلة ودمنة فى الهند وفارس ولعل هذا هو الغرض الرابع الذى أخفاه فى مقدمة الكتاب ولم يصرح به [1] .

وهكذا سار الدكتور أحمد أمين مع الاستنتاج الفنى والمنطقى الطبيعى إلى قبل النهاية فعاد إلى الرأى المسلم به من مسألة الترجمة . ويبدو رأيه هذا معارضاً فى مقدمته لنتيجته ... فمع تسليمه بان ابن المقفع وجد فى تأليف الكتاب فرصة لأكمال رسالته ووجد فى شكل حكايات الحيوان تقيه من غضب الخليفة عاد يذكر أنه ترجمة ولست أظن أن كاتباً يستطيع أن يجد كتاباً قديماً جاهزاً للانطباق على عصر حديث ، ولست أظن أن ما يمكن أن يكون ما فعله كتاب فى الهند هو ما يمكن أن يفعله فى فارس أو فى بغداد بل قد تتشابه الحكايات ولكن التوجيه فى الحكاية هو عمل المؤلف الحقيقى الذى يرسم غايته ويحدد ما يريد من كتابه وهو الذى يجعل للكتاب خطره وأهميته ...

ويحلل الدكتور أحمد أمين مقدمة كليلة ودمنة فيقترب أيضاً من إثبات التأليف ونفى الترجمة وأن لم يصل إلى إثبات ذلك تقول المقدمة :

"ينبغى للناظر فى هذا الكتاب أن يعلم أنه ينقسم إلى أربعة أغراض ، أحدها ما قصد فيه إلى وصفه على ألسنة البهائم غير الناطقة ، ليسارع إلى قراءته أهل الهزل من الشبان ... والثانى إظهار خيالات الحيوانات بصنوف الاصباغ

---

[1] ضحى الإسلام لأحمد أمين .

والألوان ، ليكون إنساً لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للنزهة فى تلك الصور ... والثالث أن يكون على هذه الصورة فيكثر بذلك التساخه ولا يبطل فيخلق على مرور الأيام لينتفع بذلك المصور والناس أبداً ، والغرض الرابع وهو الأقصى وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة ...".

وهذا التفصيل الذى يقدمه ابن المقفع لأغراض الكتاب لابعاد إدراك من يعنيهم إلا يدركوا عن كشف حقيقة ما أخفى ، وعن فهم حقيقة ما أبطن ولكن الدكتور أحمد أمين يقف عند هذه الكلمات ليقول :

"سكت ابن المقفع عن هذا الغرض الرابع ولم يبنيه وهو- من غير شك - غرض ابن المقفع ترجمته ... والظاهر أن الغرض يمكن تلخيصه فى أنه النصح للخلفاء وحتى لا يحيدوا عن طريق الصواب ، وتفتيح أعين الرعية حتى يعرفوا الظلم من العدل ، وحتى يطالبوا بتحقيق العدل ولم يوضحه ابن المقفع لأن فى إيضاحه خطراً عليه من المنصور ولعل هذه النزعة فيه كانت من الأسباب فى الإيعاز بقتله ...

ورغم هذا الاستنتاج الواضح فأن الدكتور أحمد أمين يصر على مسألة الترجمة ، دون أن يلتفت إلى أن الترجمة لا يمكن أن تفى بالغرض المطلوب ، وأنها هى أيضاً ستار من الستر التى حاول ابن المقفع بها أن يحجب يده وهو يمزق قناع الظلم ويكشف وجهه القبيح ويعريه ويفضحه من خلال الحيوانات ..."

وفى موضع آخر يقول الدكتور أحمد أمين ...

" وقد كان الباعث لابن المقفع على ترجمته - على ما يظهر - ما عهدناه فيه من ميل إلى الإصلاح الاجتماعى شاهدناه فى الأدب الكبير والصغير ورسالة الصحابة وكتاب كليلة ودمنه يشرح بعض هذه النواحى شرحاً وافياً " .

فـــأدب الرجل إذن متكامل وما قاله فى الأدب الكبير وفى الأدب الصغير عـــاد وقاله بصياغته جديدة وبطريقة تتسم بالنقية وصالحة للبقاء فى كليلة ودمنه فـــلماذا يكون الأدب الكبير والأدب الصغير تأليفاً رغم أنه لم يزد فيهما عن ترديد الحكـــم وجمـــع خلاصة تجارب الأقدمين بينما لا يكون كليلة ودمنه تأليفاً رغم أنه اســـتحدث فيه أسلوب القص وأدخل الشكل القصصى بمنتهى القوة والإصرار إلى أدب العربى الرسمى ...

الســـبب الأول : أذن فى الحكم المتسرع الذى وقع فيه النقاد والدارسون والمؤرخون فى إن الكتاب مترجم هو النص أو شبهة النص على الترجمة ثم انسياق الجميع وراء هذا الأفتراض دون تمحيص ...

السبب الثانى : فى هذا ما عثر عليه من أصول هندية لبعض القصص الواردة فى الكتاب ونحن مع تسليمنا الكامل بأن هذه القصص موجودة فى التراث الهندى لا نســـتطيع أن نسلم أن دور ابن المقفع كان مجرد ترجمتها . وقد قام المستشرقون بإجهـــاد أنفســـهم إجهاداً ضخماً فى سبيل الوصول إلى ما يمكن أن يكون أصولاً للكتاب ولم يقدموها بأعتبارها مادة استعملها ابن المقفع ليضع فيها فكرة وترجبته وأنمـــا أصـــروا على أنه مجرد ناقل لها وأن الأصل الهندى لها هو التأليف الحقيقى للكتاب ...

أسماء كثيرة تخيف فى كثرتها وضخامتها دى ساسى وشوفان وبيكل وفالكونر وهـــرقل ونولدكـــه وجويدى وبروكلمان ورايت وغيرهم وغيرهم ... كلهم أجهدوا أنفسهم ليؤكدوا أن هناك أصولاً لأبواب الأسد والثور والحمامة والمطرقة والبوم والغربان والقرد والفيلة إلى آخره ولكنها مبعثرة ، فصل فى كتاب وفصل فى كتاب آخر ...

وينسبه الدكتور أحمد أمين إلى حقيقة هامة وملفته فعلاً وهى قوله :

جميع هذه القصص هندية الأصل ولكنهم لم يعثروا إلى الآن – فيما أعلم – على كتاب جمعت فيه هذه القصص كلها يسمى كليلة ودمنه ... أو أى أسم آخر . فهل كان هناك كتاب هندى حوى كل هذه القصص ، ألفه مؤلف واحد ونقله الفرس إلى لغتهم ، أو أن الفرس نقلوا هذه القصص المتعرفة فى الكتب إلى لغتهم ووجدوها فى كتاب وأسندوها إلى مؤلف واحد ؟ .. هذا مجال خلاف لا يزال بين الباحثين ...

ولن يحسم هذا الخلاف لأن علاجهما الاعتراف لابن المقفع بالفضل ولست أدرى لماذا يبتعد افتراض تقدير دور ابن المقفع عند الدارسين حتى وهم يقتربون من الحقيقة ويمسونها ... صوت واحد فقط ارتفع ليؤكد هذه الحقيقة ولكن أحداً لم يهتم به ولم يلتفت إلى فحص افتراضه . فقد حكى ابن خلكان إن الكتاب مختلف فيه هل هو من ترجمة ابن المقفه أو تأليف له ؟ [1] ... ودفع ابن خلكان إلى هذا الثقافة الإسلامية وروح العصر التى غلبت على الكثير من أجزاء كليلة ودمنة ...

ففى باب الفحص عن أمر دمنة نفحة إسلامية ظاهرة مثل :

" ومن يجزى بالخير خيراً وبالإحسان إحساناً إلا الله " .

ومثل :

" ومن طلب الجزاء على الخير من الناس كان حقيقياً أن يحظى بالحرمان إذ يخطىء الصواب فى خلوص العمل لغير الله تعالى ، وطلب الجزاء من الناس .. " .

ومثل :

"لأن تعذب فى الدنيا يحرمك خير من أن تعذب فى الاخرة بجهنم مع الأثم ".

---

(1) المرجع السابق .

ومثل :

" والعلماء قد قالوا فى شأن الصالحين أنهم يعرفون بسيماهم " .

ومثل :

" وقالت العلماء من كتم حجة ميت أخطأ حجته يوم القيامة " .

ومثل :

" وقد علمنا أن شهادة الواحد لا توجب حكماً " .

ويقول الدكتور عبد الحميد يونس فى كتابه الحكاية الشعبية بعد استعراضه للحكايات ذات الأصول الهندية التى وجدها الدارسون من المستشرقين فى مجموعات البانجاتانترا والمهابهاراتا ...

" كما وجدت حكايات أخرى استطاع العلماء أن يردوها إلى أصولها الهندية ولكن هذا كله لا يحول بيننا وبين الاعتراف بفضل عبد الله بن المقفع ، لا فى نقله هذا الأثر الأدبى النفيس فقط ولكن فى صياغته مع الاحتفاظ بتقاليد الخرافة فى السرد القصصى المحبب إلى النفوس والذى تصور فيه البهائم والطير كائنات عاقلة مفكرة ومدبرة تخضع لنوازع الغرائز وشهوات النفوس خضوعها إلا الاعتبارات بالأحداث والاحتكام إلى الضمير والرغبة فى التفلسف واستخلاص العظة أو المثل من المواقف والعلاقات " [1] .

وحين يقر واحد كالدكتور يونس بأهمية صياغة العمل يعنى إقراره بخلقه فالأساطير ملك كل أديب ولكن الأديب الذى يختار ويجمع ويصوغ لعبر هو الأديب الخلاق صاحب الأثر نفسه ... ويعترف الدكتور أحمد أمين بقرب من هذا حين يقول :

---

(1) المرجع السابق .

" اثبت البحث إن ابن المقفع كان يحذف جملة من الأصل الفهلوى ، ويضع مكانها جملة أخرى توافق مزاج عصره ، وقد يضع فصلاً كاملاً ... " .

" ونجـد أنفسنا بعد هذه المناقشة كلها واصلين تلقائياً إلى نسبه الكتاب إلى صـاحبه أى إلى نسـبة كليلة ودمنه إلى ابن المقفع ، وتصبح كليلة ودمنة جزءاً لا يـتجزأ من التراث العربى لأديب الأسطورة العربى ويصبح جهده فيها جهداً خلاقاً حقيقـياً لا مجرد ترجمة ... جهداً دفع فيه ابن المقفع رأسه ثمنا كما نرجع ... كمـا دفع بأديب العربية إلى الصدارة فى الدفاع عن قيم الإنسان والتضحية من أجل الحضارة الإنسانية بل وتصبح الفابولا الأصل استعانت بالتراث العالمى القديم المعـروف أنـذاك لـتدخل باب التراث العالمى الحديث ونصل إلى الرد على قول الدكتور أحمد كمال زكى الذى سبق أن فتحنا به المناقشة وهو :

" عـلى أننا نسلم بأن العرب فى طورهم الإسلامى كانوا هم نقله فابولات الهند وذلك عندما نقل عبد الله بن المقفع فى القرن الثامن الميلادى كليلة ودمنة من روايـات شـعبية وجدت فى البصرة التى كانت تسمى أرض الهند – ومندونات إيرانية قيل أنها مترجمة عن البنج تانترا والمهابهارتا والفنشنو سارنا الهندية تماماً كما كـانوا هم نقلة الصورة الأصلية لقصص هزار افسابة أو ألف ليلة وليلة فى الفترة نفسها أو بعدها بقليل " .

" نقـول بل لا نسلم إلا بأن التراث الإسلامى قدم للعالم أول أدبى متكامل مستمد من التراث الشعبى المتداول فعرف دنيا القلم بفن استعمال أسطورة الحيوان واستخدامها كوسيلة من وسائل التعبير عن آلام العصر وآلام كل عصر فلم يكن الأسطورة العربى مجرد ناقل بل كان خلاقاً مبدعاً ... وكما يجد أدباء العالم اليوم أن مـن حقهـم الطبـيعى الفنى من خلال استخدام أساطير متداولة وجد أديب الأسطورة ابن المقفع من حقه أن يدخل هذا الفن إلى أدب العربية ...

وأيا كان السبب فى محاولة طمس هذه الحقيقة وإخفائها فقد آن لها الأوان أن تظهـــر وأن تصـــبح من حقائق عالمنا الأدبي المقررة والمتداولة وبما كانت أحقاد رجال عصر ابن المقفع عليه ، تلك الأحقاد التى أوردته أبشع ميته عرفها مفكر ، وربمـــا كانـــت غيرة كتاب عصره والكتاب الذين جاءوا بعده من ضخامة ما قدم وأصالته مع ضعفهم أمام الطريق الذى شقه ، هذه الغيرة التى أدت بهم إلى اختلاق الكتـــب على قلمه وهى الكتب التى أوضح كثير من الدارسين زيفها ، وما كانت لتوضع إلا لتشوه اسمه فى التاريخ الأدبي ، وربما كان أصله الفارسى أو تمسكه فترة بالمجوســـية مـــن أسباب هذا سلب الأدب العربى كل ما يعطيه الحياة والإضافة إلى أدب الإنسان .

ربمـــا كل هذا وربما كثير آخر غيره ... ولكن المسألة كلها أن ابن المقفع قدم لأدب العربية كتاباً فتح أمام الإنسانية كلها فنا من أخطر فنون العلم وهو فن القصص المستمد من الفابولا أو أسطورة الحيوان .

*****

(٣)

قـــبل كلـــيلة ودمنه عرف العرب ذخيرة كبيرة من أسطورة الحيوان ... ووصفوا الحكم والأمثال على ألسنتها وأجروا بينها الحوار وأداروا المناقشات..

فمن أمثال العرب أن الأرنب التقطت ثمرة ، فاختلسها الثعلب فأكلها فأنطلقا إلى الضب ودار بينها حوار ... قالت الأرنب :

يا أبا الحصين ...	قال الضب :
سميعاً دعوتى ...	قالت الأرنب :
أتيناك لنختصم إليك ...	قال الضب :
عادلاً حكمتما ...	قالت الأرنب :
فأخرج إلينـــــا ...	قال الضب
فى بيته يؤتى الحكم ...	قالت الأرنب :
أنى وجدت ثمرة	قال الضب
حلوة فكليها ...	قالت الأرنب :
فأختلسها منى الثعلب ...	قال الضب
لنفسه يفى الخير ...	قالت الأرنب :
فلطمتـــــــه ...	قال الضب
بحقك أخذت ...	قالت الأرنب :
فلطمنى	قال الضب
حر أنتصر ...	قالت الأرنب :
فاقض بيننا ...	قال الضب
قد قضيت ...	

وهـــذه الصورة أقرب إلى اللعب اللغوى منها إلى العمل القصصى المتكامل الـــذى نجده فى كليلة ودمنه التى تجمع إلى السرد والحوار وتجمع إلى الأثنين تصوير الانفعـــالات والحوائز فترسم صورة متكاملة لاســـــــتغلال قصة الحيوان أروع استغلال ... وأنما ذكرنا هذه الصورة اللغوية السابقة لندل على أن هناك أصولاً عربية لحكايات الحيوان الشعبية والمتداولة والواقع أن العرب كما انطقوا الحيوانات بالحكمـــة والـــبلاغة وأجروا على ألسنتها المثل السارية والحكم المتداولة استغلوها كرموز دالة على خط سير القدر، فكأنما وصفت وصنعت فى طريق الإنسان لتدله على ما يراد له وما يراد به ...

والفـــأل والطـــيرة من المسلمات الباقية فى نفوس العرب كأنها الحقائق ، يمتنع الإنســـان مـــنهم الإقدام على عمل إذا حدث ما جعله يتطير وينطلق إلى أمره أن حدث ما يجعله يتفاءل ويقول ابن قتيبة فى عيون الأخبار فى كتاب الحرب :

" قال عكرمة كنا جلوساً عند ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما فمر طائر يصيح فقـــــال رجـــل من القوم ... خير طير ... فقال ابن عباس ، لا خير ولا شر .... " .

ويستمر ابن قتيبه فى حديث الطير ... فيقول :

" قال كعب لابن عباس ما تقول فى الطيرة قال وما عسيت أن أقول فيها ، لا طير إلا طير الله ولا خير إلا خير الله ولا إله إلا الله ولا حول ولا قوة إلا بالله .. ".

وفى أســـاطير العالم كلها يلعب التفاؤل والتشاؤم بالحيوان دوراً كبيراً ويقول الأستاذ الكزاندر هجرتى كراب فى كتاب علم الفولكلور :

" نســـتطيع أن نقســـم الطـــيرة إلى قسمين : أحدهما هذا الذى يرد فى بعض الديانـــات الســـامية ، والقســـم الثانى هو الذى لم ينل هذا الشرف أن جاز لنا أن نستخدم هذه الكلمة ويشتمل القسم الأول على التفاؤل بالطير واستطلاع الغيب،

ويـــنطوى تحت القسم الثانى تلك المعتقدات الخرافية المعادية كالأيحاءات المختلفة التى نستنتجها من أول إنسان وأول حيوان تلقاه عندما نبدأ الصبر " .

ومـــن أشـــد المـــزاعم ذيوعاً فى الضمير الإنسانى التشاؤم من الغراب وتنبىء الحـــيوان بالأخطار التى توشك أن تقع والمثال المألوف لهذا الظن أن الجرذان تترك الســـفينة إذا أشرفت على الغرق . وقد لعب الخيال العربى فى هذا المضمار دوراً كـــبيراً وبـــارزاً لا يقل عن أهمية الدور الذى لعبته كليلة ودمنه ... فأن كانت كلـــيلة ودمنة قد أرست أديب الحيوان واستغلال الحيوان استغلالاً قصصياً يحقق لصـــاحبه الـــيقين من السلطان حين يحوط الخوف الأديب والقصاص ، فإن هذه القصص التى صاحبت الحيوانات وألزمتها بصفات معينة تجلب التفاؤل نقلت آداب العالم الكثير منها من العرب كما نقلت عن غيرهم ...

وقول كراب :

" وأمـــا ممارســـات التفاؤل فكانت معروفة فى بلاد الإغريق وإيطاليا ، وكان العـــرب يـــزاولونها فى العصور الوسطى على نطاق واسع ويسمونها الفأل . وقد عرفـــت بهذا الأسم فى شمال أفريقيا ويبدو أنهم حملوها إلى اسبانيا فقد يجوز لنا أن نستنبط هذه الحقيقـــــة من تحليل كلمة أرفيل الأسبانية وهى تحوير لكلمة الفأل العربية .... " .

ومن أروع قصص التفاؤل التى خطها بيان كاتب الأسطورة العربى قصة سيل العرم كما جاءت فى نهاية الأرب للنويرى ودارات حول خروج عمرو بن عامر من اليمن قبل السيل ومعرفته بخبره يقول النويرى فى الجزء الخامس عشر من كتابه :

وكان سبب خروجه من اليمن وإطلاعه على خبر سيل العرم قبل حدوثه دون غـــيره من الناس أنه كان له امرأة كاهنة يقال لها طريفة الخير ، وكانت قد رأت فى مـــنامها أن سحابة غشيت أرضهم فأرعدت وأبرقت ثم أصعقت فأحرقت كل ما

وقعـــت عليه ففزعت طريفة الخير لذلك فزعاً شديداً وأتت إلى زوجها عمرو بن عامر وقالت :

ما رأيت اليوم أزال عنى النوم فقال لها ...

ما رأيت ؟

قالت : رأيت ... تميما أرعد وأبرق طويلا ثم أصعق فما وقع على شيء إلا احترق .

قال :

فلما رأى ما داخلها من الروع والفزع سكنها ، ثم أن عمرو بعد ذلك دخل حديقـــة له ومعـــه جارية من بعض جواريه فبلغ ذلك امرأته طريفه فخرجت إليه ومعها وصيف لها اسمه سنان فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث فئران منتصبات عـــلى أرجـــلها واضعات أيديها على أعينها ... فلما نظرت طريفة إليه قعدت فقعـــدت إلى الأرض ووضـــعت يديها على عينها وقالت لغلامها إذا ذهبت هذه المـــناجد (الفـــئران) فأخـــبرنى ... فلما ذهبت أعلمها فانطلقت مسرعة فلما عراضـــها خليج الحديقة التى فيها عمرو وثبت سلحفاه من الماء فوقعت فى الطريق عـــلى ظهرها وجعلت تروم الإنقلاب ولا تستطيع وتستعفر بيديها وتحثو التراب على بطنها من جنباته وتقذف بالبول . لما رأتها طريفة جلست إلى الأرض . فلما عـــادت الســـلحفاة إلى المـــاء مضت طريفة حتى دخلت الحديقة على عمرو حين انتصـــف النهار فى ساعة شديدة الحر فإذا الشجر يتكافأ من غير ريح ... فلما رآها عمرو استحى منها وأمر الجارية بالتنحى ... ثم قال لها :

ما أتى بك يا طريفة ... ؟

فكهنت وقالت :

والـــنور والظلماء والأرض والسماء أن الشجر لها لك ، وليعودن الماء كما كان فى الزمن السالك ...

قال لها عمرو :

ومن أخبرك بهذا ؟

قالت :

أخبرتنى المناجيد (القثران) بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد الوالد .

قال : فما تقولين ؟

قالت :

أقـــول قـــول الندمان لهفاً ، لقد رأيت سلحفاة تجرف الترب جرفاً ، وتقذف بالبول قذفاً ، ودخلت الحديقة فإذا الشجر من غير ريح يتكافأ ...

قال عمرو :

وما ترين فى ذلك ... ؟

قالت :

هى داهية دهياء من أمور جسيمة ومصائب عظيمة ...

قال :

وما هو ويلك ... ؟

قالت :

هو خطب جليل ، وخزى طويل ، وخلف قليل ، والقليل خير من تركه ...

قال :

وما علاقة ما تذكرين ...

قالت :

أذهب إلى السد فإن رأيت جرذاً يكثر يديه فى السد الحفر ، ويقلب برجليه مراجل الصخر ، فأعلم أن الغمر غمر ، وأن قد وقع الأمر ...

قال :

وما هذا الذى تذكرين ؟

قالت :

وعد من الله نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل .... .

قال :

فانطلق عمرو على السد فحرسه فإذا الجرذ يقلب برجليه صخرة ما يقلبها خمسون رجلاً [1] . ويذكر لنا النويرى بعد ذلك كيف آمن عمرو بأن السد ستحطم وأن السيل العرم سيجتاح كل شيء فيحتال حتى يفتعل شجاراً فى المدينة ويبيع ما يملك ويهرب بنفسه وبولده فى قصة طريفة وحكاية ذات لغة عالية وسياق محبوك وجيد ...

فالأصل فى الحكاية والمحور الأساسى فيها هو التطير وهو أيضاً التنبؤ والعرافة وهما فى الفولكلور العالمى مرتبطان ، يقول الزندر كراب :

الحق أن عدد الحيوانات المنذرة فى الفولكلور العالمى كبير للغاية كما أن صفات التنبؤ التى تنسب إلى الحيوان تؤلف أساس هذه الحكاية [2] .

واستطلاع الغيب والتنبؤ وتفسير الأحلام ترتبط ارتباطاً عميقاً بالحيوانات بعامة والطيور بخاصة وربما كان الأمر مرتبطاً بالعبادات القديمة التى كانت تربط بين المعبود وكائن حى غير عاقل أو جماد وربما ارتبط هذا كله بحركة النجوم التى

---

(1) نهاية الأرب للنويرى .

(2) علم الفولكلور لكراب .

اشتد الاعتقاد أنها ذات أثر فى حياة الإنسان وذات دلالة عليه ويقول كراب عن التنجيم :

وأقصى شيء ما يقال عن التنجيم أنه نشأ من أصول علمانية ولو أن الاعتقاد فى تأثير النجوم على الظاهرات الطبيعية منتشر فى انحاء الأرض جميعاً ، كما أن التنجيم البابلى يرجع بأصوله الأولى إلى التفكير البدائى ما فى ذلك ريب .

والطيور والحيوانات المرشدة للإنسان كانت مجالاً كبيراً لحركة كاتب الأسطورة العالمى وكذلك كانت وسيلة من وسائل التعبير فى كثير من الأحيان عند أديب الأسطورة العربى .

ومنذ قديم جداً ونحن نجد الحيوان أو الطائر المرشد ... ففى حكاية وهب بن منبه عن مصرع هابيل بيد أخيه قابيل يلعب الطير المعلم دوراً هاماً فى إرشاد قابيل على كيفية دفن أخيه يقول وهب :

قال ابن عباس كانت منافستهما على أخت قابيل التى ولدت معه فى بطن وكانت جميلة فطلب هابيل أن يتزوجها قال له قابيل أنا أتزوجها فقال له هابيل لن تحل لك ، قال له قابيل أقرب معك قرباناً فمن أكلت النار قربانه تزوجها فقربا فأكلت النار قربان هابيل فبقى قربان قابيل فحسد هابيل عليه وقتله ... فلما رآه ميتاً حين قتله أقبل عليه يدعو وينادى يا هبيل يا هابيل فلما لم يجبه أقبل عليه يقلبه ليتحرك فلما رآه ميتاً لا يتحرك ولا يحير جواباً ولا ينظر ، ندم وأدركه الخوف وعلم أنه الموت وداخلته وحشة الموت وعلم أنه عصى الله فطلب الحيلة له فلم يدر ما يفعل فيه وضاقت عليه فبعث الله غرابين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فلما مات بحث الغراب الحى حتى خد فى الأرض أخدوداً ثم جرى إلى الرغاب القتيل فألقاه فى الأخدود ... فقال قابيل هذا غراب علم ما يعمل بأخيه فمالى لا أوارى سوأة أخى ... ثم حفر له قبراً ...

ويواصـــل الأستاذ كراب هذه الظاهرة فى الأدب العالمى فيقول تعقيباً على حكاية السلندية تحدث عن غراب حذر فتاة صغيرة من كارثة وشيكة الحدوث :

ولا يقـــل عن ذلك تلك الحكايات العديدة التى تقص علينا كيف أن حيواناً أرشد كائناً بشرياً ومثال ذلك ثعلب أريسطو مينيس وحيوان السندباد أو كيف أنه أرشـــد جيشـــاً بكامله ومثاله مختلف القصص الخرافى الإيطالى القديم وقصة الطائر الـــذى أرشـــد شـــرعان إلى الطريق الصحيح حين أخذ على عاتقه القيام بالحملة الخرافية إلى الأراضى المقدســـــة .

وإيـــا ما كان الأمر فليس مما يؤمن جانبه أن يبنى نظرية عن الطوطمية البدائية ونفسر بها هذه الحكايات دون أن يتوفر لدينا مزيد من التفصيلات فالحيوان فى هذا القســـم من الحكايات ليس إلا مرشداً مرثوقاً به ، ولقد يتعذر علينا أن ننكر على الحيوان أن يكون هذا المرشد الأمين فى ظروف خاصة بذاتها " [1].

عـــلى أننـــا وأن سلمنا برأى الأستاذ الكزندر كراب فظن أن فى إيراد العلم والحكمـــة عـــلى ألسنة الحيوانات والطيور شيء وثيق الصلة بتلك الطيور المعلمة والحـــيوانات المـــنذرة والدالـــة الكثيرة الانتشار فى المأثور الشعبى ، ولعل أديب الأســـطورة جعل من حكمة الحيوان والطير سخرية فنية من استشراق الإنسان إلى المعـــرفة وغروره بأنه سيد الكون لأنه يعرف كل أسرار الكون ، ولعلها أيضاً لفته من أديب الأسطورة إلى ضعف الإنسان وتفاهته مهما دل بقوته ومهما زها بجبروته، والدلالة شرقية بلا ريب وهى أقرب على العقيدة الإسلامية التى تحث الإنسان على التواضـــع والانـــتفاع وتغرس فيه فكرة أنه لن يستطيع أن يخرق الأرض أو يجاوز السماء . .

---

[1] علم الفولكلور .

فالمسألة ليست أننا لا نستطيع أن ننكر صداقة الحيوان للإنسان ومعاونته له ولكن المسألة عندنا أن المغزى الفنى فى رمز الحيوان الدال أعمق وأكثر قرباً إلى حس المبدع الذى يقف عند الدلالة فى تحدث الحيوان والطير وفى معرفته التى تفوق معرفة الإنسان ...

وربما كان للتفسير الطوطمى أيضاً دلالته ولكنه قد يكون صاحب هذه الدلالة بالنسبة للأدب الأسطورى عند الغرب أما أديب الأسطورة العربى فقد طوع أساطيره قد إمكانه للمفاهيم البعيدة كل البعد عن الطوطمية وأن ظلت آثارها تبدو بين حين وحين ...

وهناك سيرة من السير الشعبية هى أكثر السير ثراءاً فى استعمال الحيوان والطير المعلمين بكثرة شديدة وبدلالات مختلفة تلك هى سيرة سيف بن ذى يزن ، ونحن نحس فيها أن المعنيين يمتزجان فيها معاً ... المعنى الطوطمى والمعنى الفنى الذى أشرنا إليه ... ويجدر بنا أن نقف عند الطير المعلم والحيوان المرشد فى سيف بن ذى يزن قليلاً ....

******

(٤)

أسطورة الحيوان والطير الهادى عند الدارسين المستشرقين قد تعود إلى أسباب طوطمـــية وقد تعود إلى طبيعة علاقة الإنسان بالحيوان ، وعندنا أنها تعود إلى الحس الأدبى المرهف الذى يريد أن يضائل الإنسان من مكانه وهو من يملؤه الغرور يعلمه فـــيجعله يتعلم على يد الحيوانات العجمارات ما يجهل ، كما أنه عندنا يحمل أيضاً بعـــض آثار الطوطمية ، وهو فى سيرة سيف بن ذى يزن يضيف مفهوماً جديداً إلى هذه المفهومات . ففى رواية سيف بن ذى يزن تورد الأم العاقة الجافية (غير الرؤم) ابـــنها إلى المهـــالك وتوقعه فى المصائب لتتخلص منه ولكنها تفاجأ حين يتمكن لها الأمـــر فى مديـــنة حمراء اليمن بعد أن تقتل كل من عاداها ، تفاجأ عندما تلجأ إلى الحـــيلة معـــه لـــتغرية فتكتشف أنه أبنها الذى رمته وهو طفل فى الغابة ليفترسه الوحـــوش فتعود إلى حيلتها ومكرها وتكشف له عن حقيقة علاقاتها به وتخبره أنها أمه وأنها ستسلم له المدينة والكنوز وتستأذنه فى العودة إلى المدينة لتبشر أهلها بأن ابن ملكهم الغائب وابنها قد عاد ... وحين تعود إليه ...

يقول مؤلف رواية سيف بن ذى يزن :

قال الملك سيف :

لقد أسرعت فى العودة يا ملكـــــه ...

فقالت قمريـــة :

بـــل قل يا أمى ، فأنت فلذة كبدى وقطعة من قلبى ... أنا ما عدت سريعاً إلا لأسير بك حيث مال أبيك حتى ألزم أنا مكانى فى الحريم مع جوارى ...

فقال الملك سيف :

وأين هو هذا المال ؟

قالت قمريـــــــة :

لقـــد دفنته فى أرض بعيدة ... وهى خمسون صندوقاً من الذهب الأحمر ، وبعد أن دفنته وضعت للرجال الأربعين الذين أشتركوا فى دفنه السم فى الطعام فما أكلوا حتى هلكوا عن آخرهم ...

فقال الملك سيف :

وكيف ياملكة تقتلين الرجال دون جريرة ولا إثم ... ؟

فقالت قمريـــــــة :

مـــا فعلت هذا إلا خوفاً من ملك الحبشة ، يعرف بخبر المال منهم فيطمع فيه ويغـــزو مديـــنتى ويقتلنى ... أما وقد ظهرت أنت فالمال الآن مالك ... فهيا أركـــب معى أدلك عليه حتى تغدق على أهل المدينة فى الصباح فيظل ذكرك على لسانهم ، وتظل سيرتك فى قلوبهم ...

قال الملك سيف :

أذن هيا بنا قبل أن يطلع الصباح ...

فقالت الملكة قمرية :

لى شرط واحد يا بنى ...

قال سيف :

وما هـــــو ... ؟

قالت قمريـــة ؟

إلا يعلم أحد بخروجنا ، فنحن لا نأمن من جواسيس الملك سيف أرعد ...

فقال الملك سيف وهو يتقلد حسامه استعداداً للخروج معها :

لم يعلم أحد بخروجنا ...

أخـــذ الجـــوادان يشقان طريقهما وسط الظلام فى حذر حتى غادرت قمرية ومعها الملك سيف معسكر الملك أفـــــــــراح دون أن يلحظهما أحد من الجند أو الحراس، وحين أوغل الملك سيف وقمرية فى السير فى الصحراء خشى سيف أن يفقدا الطريق ويتوها فى الصحراء ٠٠٠٠

فقال :

لقد طال بنا السير ولم نصل ٠٠٠ فهل المكان قريب ٠٠٠ ؟

فقالت قمرية :

لقد أوشكنا يا بنى أن نصل ٠٠٠

ثم أخـــذت تســـليه بالكلام ، وتلهيه بزخارف الحديث حتى وصلا إلى شجرة ضخمة مهولة وقد أوشك الصباح أن يطلع وأخذ نور الفجر يظهر فى الكون ٠

وقالت قمريـــة :

لنترل هنا يا بنى لنستريح فقد أمضنى التعب ، وأنا على كل حال امرأة لا جلد لى على طول السير ومشقة الرحلة ٠٠٠

فأطاعهـــا الملك سيف ، ووقف بفرسه عند الشجرة حيث وجد غدير ماء ، وتـــرجل عـــن جواده وأخذ يشرب من الماء وقد أنحنى على حافة الدير ٠٠٠ أما قمرية فتقدمت منه على حذر وقد جردت حسامها من غمدة ، ونزع الله الرحمة من قلـــبها وضـــربته بالسيف على رأسه فأنشقت رأسه ٠٠٠ وأراد أن يتحول إليها فضـــربته ضـــربة ثانية وقعت بين أكتافه فقطعت فى لحمه وشقت عظمه ٠٠٠ ثم ضـــربته الضربة الثالثة فصاح الملك سيف صيحة كالرعد، ألا أنها عاجلته بالضربة الـــرابعة عـــلى صدره فوقع على الأرض غائباً عن الصواب فاقداً للوعى مضرجاً بدمائـــه ٠٠٠ فعادت تضربه بسيفها وقد ملأ الشر قلبها ، فجاءت الضربة على ظهـــره وانكسر الحسام من يدها ٠٠٠ ووقفت قمرية ترقبه وهو مضرج بدمائه ،

غـــارق فى لجـــة من الدم الأحمر القانى ، وقد سكن جسده فظنت أنه مات ... واعتدلت على حصانها وهى تبتسم كالشيطانة وتقول فى حقد ...

لقد أفلت منى مرة ... أما هذه المرة فقد الحقتك بأبيك ...

فتح الملك سيف عينيه على ألم فظيع يحس به فى كل جزء من جسده ، وحاول أن يحـــرك قدميه فلم يستطع ، وحاول أن يرفع ذراعه فلم يستطع ... فالتفت حوله فإذا بالأرض كلها غارقة فى بركة من دمائه ... فتأوه الملك سيف من الألم، ورفع عينيه إلى السماء يدعو الله إلا يطيل عذابه وأن يسرع بموته إن كان قد كتب علـــيه المـــوت فى هـــذا المكان أو أن يمن عليه بوسيلة للشفاء ... وبينما هو فى تضـــرعه ودعـــواه إذ بطائـــرين قد اقبلا من البرارى المقفرة وحطا على غصن فى الشـــجـــــرة التى يرقد تحتها ... وقالا معاً فى صوت واحد وهما يستقران على الغصن ...

لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإبراهيم نبيه ...

فالتـــبه الملك سيف وقد أخذه العجب من الطارئين العجيبين اللذين يتحدثان كالناس وإذا بأحدهما يقول للآخر :

أرأيـــت يا أخى ما فعلته هذه الملعونة قمرية بابنها وكيف ضربته بالسيف حتى أثخنته بالجراح ؟

فقال الطير الآخر :

لا تعـــترض على حكم الله ... وأعلم أن أمه قمرية تدبر له سبع مهالك ، أولهـــا وهو طفل صغير حين رمته فى الحراء فأرسل الله الغزالة أرضعته واجنية ربته والملـــك أفـــراح احتضـــنه ورباه والثانية هى هذه ، قادته إلى هذا المكان وضربته بالسيف البتار حتى ظنت أنه مات فتركته فى بركة من دمه ...

وكـــان الملـــك ســـيف يسمع حديث الطائرين وهو يعجب فى نفسه كيف تتحادث الطيور حديث الآدميين ، وقد داخله شك كبير فى أنه يعرف الصوتين وأنه سمعهما من قبل وما لبث أن سمع الطائر الأول يقول :

صدقت يا شيخ جياد وهذا فعل أهل الكفر والعناد ...

فقال الطائر الآخر :

هـــيا يا شيخ عبد السلام دواؤه ... فورق هذا الشجر لو مضغة بأسنانه ثم وضعه على الجرح يشفى بأمر الله القدير ...

وتذكـــر الملـــك سيف الصوتين ... كانا للشيخين جياد وعبد السلام وقد قابلهما فى رحلته إلى مدينة قيمر وقام بدفنهما بعد أن ماتا ، فتعجب من قدرة الله ، وشكر للمولى أن حفظه ورعاه وأرسل له من يدله ويرشده ...

وحـــين التفت الملك سيف إلى الشجرة كان الطائران قد غادرا الغصن وهبت ريح عاتية هزت الشجرة كلها هزاً وتساقطت أوراقها من حوله بكثرة ... فأخذ الملـــك سيف من الأوراق ومضغها فى فمه ومضى يضعها على الجروح فتطيب فى الحـــال ويختـــفى أثرها وجعل الملك سيف يداوى جراحه بورق الشجر واحداً أثر الأخر وهو يحمد الله ويشكره ...

حلـــول الروح فى الطائر وروح الميت بالذات تشير إلى الكثير من المعتقدات الشعبية عند الكثير من شعوب العالم ، ولكنها هنا روح هادية وروح حارسه أيضاً ، والمعنـــيان اللذان تأتى روحاهما على شكل الطائرين من أولياء الله الصالحين الذين ســـخرهم الله لخدمة سيف حتى يحقق النصر على الكفر والطغيان ... فالطير هنا يـــزيد مع ما قدمنا من تفسيرات أنه رمز القدرة الآلهية التى لا يعجزها شىء والتى تحفظ من تشاء والتى تسخر للمؤمن من كل كائن حى ليكون فى عونه ...

ورواية سيف بن ذى يزن مليئة بهذه الرموز المتعلقة بالحيوانات والطيور فحين يريد سيف أن يعبر مخاضة ماء يسخر الله له حيواناً بحرياً يسمى الهابشة يصفة له الشيخ جياد قبل موته بقوله :

" واصل سيرك ثلاثة أيام حتى تصل إلى أرض بطحاء متسعة بها بحر واسع ... فقف على شاطىء البحر إلى وقت الغروب تلقاك دابة من دواب البحر، تأتى وهى ناظرة للشمس وراءها تروم خطفها وعند الغروب يدركها النوم فتنام إلى شروق الشمس ثم تستيقظ فتجد الشمس قد ظهرت من الشرق فتمشى إليها تريد خطفها فتكون الشمس قد ارتفعت وتدور معها وهى ناظرة إليها إلى أن تغرب، فإذا وصلت إليها فأصعد على ظهرها ... أو أى مكان شئت من جسدها ... فهى لا تحس بك حتى تصل بك إلى البر الثانى ... فليس لك للوصول إليه إلا هذه الوسيلة فسبحان من دبر الأمر والحيلة ... " .

فالدلالة هنا كما نرى إسلامية إذ هى تقوم على تسخير الدواب لخدمة الإنسان وخدمة أهدافه التى هى نشر الدين والعدل ... وهذه الإضافة التى قدمها أديب الأسطورة العربى إلى استعمال رمز الحيوانات والفابولات التى وصلت إليه سمة أساسية من سمات الكتابة العربية للأدب الأسطورى الذى تم فى عهد الإسلام ...

إلا أننا لا نستطيع أن نترك سيرة دون أن نقف وقفة عند استعمال آخر للحيوان ذلك أن سيف بن ذى يزن حين رمته أمه فى الغابة لتأكله الوحوش تعثر عليه غزالة تحن له فترضعه لديها ... وتظل ترضعه إلى أن يعثر عليه أحد الصيادين ... وتظل ترضعه إلى أن يعثر عليه أحد الصيادين ... ويظل الملك سيف فترة طويلة لا يعرف إلا أن أمه هى الغزالة ...

وهذه الظاهرة وجدت شبيهات لها فى أساطير العالم التى تتحدث عن الحيوان ويقدم لها الأستاذ الكزندر كراب تحليلاً علمياً إذ يقول :

لقـــد استعين بالمعتقدات الطوطمية لتفسير ما يقوله جانب كبير من الحكايات عـــن بطـــل أو بطلة أرضعه حيوان أو حيوانات ، ولا نزاع فى أن هذا الجانب من الحكايات يضرب بجذوره إلى الماضى البعيد بل إلى عصر ما قبل التاريخ ، وبالرغم مـــن هذا ينبغى أن نعيد القول أنه ما لم تتوافر لدينا معلومات أخرى ، فلا نستطيع أن نقبل هذا الأفتراض أو نطمئن إليه ...

إلا أنه يؤكد تفسيره المبنى على الطوطمية فيقول :

" نحن نعرف أن الطوطمية نعنى الاعتقاد فى انحدار مجموعة بشرية ما من حيوان جد ويبنى على هذا أن يلعب البطل دوره فى اضطراد النسب وتسلسله فيكون له أحفـــاد حقيقـــيون وغير حقيقيين وإلا كان تسلسله من أسلافه من الحيوان بدون مغـــزى أو أهمية ، وينبغى أن يكون الحيوان والد البطل وليس ربيبه أو حاضنه لا غـــير، وإذا ســـلمنا بهاتين القضيتين وضح لنا أن الجانب الأدنى من هذه الحكايات تسلسلات انساب لا غير ... " .

ويقـــف الأستاذ كراب عند فكرة الأنساب إذ يبدو أنها استهوته حتى جعلته يعود فينفى تماماً تفسير هذه الظاهرة بالطوطمية فيقول :

" أن الحقـــائق تشير إلى أن الطوطمية غير قائمة . أما الذى ينبغى أن نتذكره بـــادىء الأمر فهو فعالية تسلسل الأنساب ، فإذا ما وضعت قصة ناجحة عنده ، نســـجت على منوالها قصص كثيرة كأنها نبات الفطر ، وأصبحت الحكايات التى تـــنطوى تحـــت هـــذا القسم مشتقات ثانوية ، ومع ذلك فلا حاجة إلى الطوطمية لتفسير حكاية الجذر ذاتها ، فلدينا أسباب مختلفة تفسر لنا سبب رضاع الطفل بلبن

ذئبة أو دبة أو لبؤة ... وأهم هذه الأسباب الظن بأن هذا اللبن جدير بأن يكون ذا تأثير على ملكاته العسكرية أو البدنية ... " .

وقد يكون هذا التفسير منطقياً على أولاد الذئاب أو من يرضعون من الحيوانات الكاسرة ... ولكن النص العربي الذى قدمناه يعتمد على حيوان آخر ليس كاسراً على الإطلاق أنه يعكس صورة حلوة لغزالة ، والغزالة من أجمل الحيوانات وأرقها وأرشقها تحن على طفل رضيع ، ولبن الغزال لبن يورث الشجاعة وأنما ربما أراد كاتب الأسطورة العربية فى سيف بن ذى يزن أن يضع المقارنة بين الأم الإنسانة التى لم ترحم طفلها الرضيع والغزالة الحيوان التى كانت أكثر حناناً ورفقاً به ليخلق موقف المقارنة الدرامى هنا رامزاً إلى قسوة الإنسان وغلظته بالمقارنة برقة الحيوان وحدبه ...

وعلى أى فأن حكاية إرضاع الطفل من لبن حيوانه متوحشة كثيرة وواردة فى نص الفروسية العربية وكذلك قتل الحيوان المفترس وأكل كبدة أو قلبه وهى كثيرة الورود فى سيرة عنترة بن شداد الذى يبدأ طفولته البكر بقتل أسد وأكل قلبه فتصبح الشجاعة والقوة بعد هذا من صفاته ... ولعل حكاية الأسد العرقى هذه هى التى شكلت ما دار حول الأسد فى أوربا من أساطير ...

يقول الأستاذ كراب :

" أما المكانة المرموقة التى يشغلها الأسد فى القصص الخرافى أو فى شارة البغالة على الدروع فترجع إلى أصول متقنه بلا نزاع – ولعلها انتشرت بين العامة فى العصور الوسطى بحيث صارت سماحة الأسد وذكاؤه وشجاعته حقائق يألفها أولئك الذين لم يروا أسداً واحداً فى حياتهم " .

والعصـــور الوســـطى هـــى عصور التقاء الثقافة العربية بأوروبا عن طريق الحـــروب الصـــليبية بالدرجة الأولى والالتقاء الحضارى والتتارى بالدرجة الثانية والالتقاء الفكرى والفنى الذى يتضح فى كل دراسة وبصورة متأصلة ...

ويؤكد أثر أديب الأسطورة العربى فى أساطير أوروبا بل وفى معتقداتها ما يقوله كراب :

ويذكـــر بعـــض الفولكلوريين الالزاسيين عادة تتعلق الخفافيش على أغصان الشجر لطرد الجراد ... وقد يعجب الإنسان ويتساءل كيف صار الجراد خطراً داهمـــاً يهدد هذه المقاطعة الفرنسية ويقتضى إتخاذ هذه الإجراءات العنيفة ... لكـــن يتضـــح الأمر ولنا حين نقرأ ما كتبه المصنف العربى القزوينى من أنه إذا علق خفاش على شجر قرية من الجراد فوق القرية ولم يتوقف وما دام يأتى أو غيره من مصنفى العصور الوسطى لم يذكروا هذه الواقعة الغريبة من مأثور الحيوان فقد نجد أنفسنا بازاء أثر قادم من الشرق وفيه وفى شمال أفريقيا بالذات يقدر الجراد مصدر فـــزع ورعب للفلاحين ويصبح الخفاش الد أعداء الجراد ... وما أكثر ما حمله أديـــب الأسطورة العربى للفكر الأوروبى كله وخاصة فى المأثور الشعبى وفى أدب القص والرواية ...

******

(٥)

لم يقتصر دور الحيوان فى إنتاج أديب الأسطورة العربى على ما قدمنا فقد تعداه من الرمز والتفسير إلى التأثر بصحبة الحيوان ومعايشته ... فالحيوان يلعب فى حياة رجل الجزيرة العربية دوراً كبيراً لا فى التفاعل مع حياة الإنسان العربى وحسب وأنما فى التدخل فى هذه الحياة نفسها والتأثير فيها ، وأبناء الجزيرة قد عرفوا عن الحيوانات الملاصقة لهم كل شىء ، عاداتها وطباعها ... وعلاجها ودوائها ، فوائدها ومضارها .

ويذكر ابن النديم فى الفهرست مجموعة كتب عن الطيور الجوارح أمثال كتاب الجوارح لمحمد بن عبد الله بن عمر البازبار ، وكتاب البزاة للفرس والبزاة للترك والبزاة للروم والبزاه للعرب وكتاب الجوارح واللعب بها لأبى دلف القاسم بن عيسى ...

وكذلك يذكر ابن النديم مجموعة ضخمة من الكتب المؤلفة فى البيطرة ألفه للمتوكل كتاب ألفه حكيم من حكماء الروم فى علاج سائر الدواب ، وكتاب البيطرة لسموس ، على آخره.

وقد الف الكتّاب الفصول الطوال والكتب الكثيرة فى جميع أنواع الحيوان لم يتركوا شيئاً عنها عرفوه أو عاينوه أو نقلوه إلا وذكروه فى كتبهم ... وزاد الأمر بأن خلقت حول الحيوانات الحكاية والأساطير إلى جوار ما حفلت به كتب الأدب من شعر الشعراء ومدائح أصحاب القول فى الخيل والإبل بخاصة ويوصف الحيوان الوحش والصيد والطراد بعامة .

ويحكى ابن قتيبة فى عيون الأخبار :

" يقول أبو ذر : ما من ليلة إلا والفرس يدعو فيها ربه ويقول اللهم سخرتني لابـــن آدم وجعلـــت رزقي بيده فأجعلني أحب إليه من أهله وماله ، اللهم ارزقه وأرزقني على يديه [1].

ومن أشهر الخيل عند أدباء الأسطورة العرب الأبحر بن النعامة فرس عنترة بن شداد ففي إحدى غزوات العبسين برئاسة عياض بن ناشد يلتقي عنترة بالحارس بن عـــبادة البشكرى الذى يركب مهراً أدهم ... يقول أديب الأسطورة العربى في وصفه :

" وثـــب الحارث بن عباد في عاجل الحال وركب على ظهر مهر أدهم كأنه الليث القشعم وكان هذا المهر يشبه لون الظلام أوكأنه قطعة من الغمام ، وكانت أم هذا المهر يقال لها نعامة وكانت تضرب بها الأمثال في أرض تهامة ويفتخر بها أهل اليمامة ....

قال الراوى يا سادة ياكرام ... وكان أبو هذا المهر يقال له واصل وكانت تنحســـر عليه العربان وملوك القبائل ، فلما أن صار الحارث على ظهر المهر صاح بين أذنيه وقصد به الغارة فطار من البيوت كأنه من العفاريت الطيارة ونظرت إليه الفرســـان فلم يروا إلا غباره وقد وثب به وثبات متداركات حتى صار على أعلى الـــربوات العاليات المرتفعات وأمن صاحبه من الآفات والنكبات ، فلما رأى عنتر إلى ذلـــك الجواد تنهد وتحسر وتعجب كل العجب وأضرمت في قلبه النار وزادت باللهب وصار عنتر مثل الفريق وتلهب قلبه على نيران الحريق وقد علم أنـــــه يا أسياد إذا طلبه ما يبلغ منه المراد ولا يصل إليه يجرى أو طراد [2] .

---

(1) عيون الأخبار لابن قتيبة .

(2) سيرة عنترة بن شداد .

وينصرف بنو عبس إلى الغنيمة ينهبون الحلة ويسرقون النساء والإبل والنياق ويحملونها بالنفائس وعنترة عنهم غائب لايراهم ولا يحس بهم .

ويقول راوى سيرة عنترة :

" وزاد بعنـــترة القلـــق ونسى عشقه لعبلة بذلك الحصان الذى ما ملك مثله إنســـان لمـــا اعتراه من العشق الذى دهاه ... وعاد عنترة يتمنى أن ينظر ذلك الفارس أو يراه ولو أمكنه كان بنفسه اشتراه ... " .

ويختـــفى الفارس والفرس ، ويكلف فرسان بنى عبس عنترة أن يسوق الغنيمة احتقاراً له فسير بها وهو غضبان وهم من ورائه على بعد كبير ... وما أن يغيب عنترة بغنيمة بنى عبس يسوقها العبيد ويحرسها مجنونهم منه لما رأوه من حربه وطعانه والنساء يندبن والعويل يرتفع من كل مكان حتى تعرض لهم الحارث اليشكرى مرة أخرى وهو فوق جواده ويقول أديب السيرة :

" وقـــال الراوى إلا أن بنى عبس ما غابت يا فهيم إلا وذلك الفارس قد أقبل بالجواد وهو يهيم وفى قواده على أهل الحى المأسورين نيران الجحيم ... فلما رآه عنـــتر نـــاداه وا فرحاه يا فتى بحق الرب العظيم رب موسى وإبراهيم ورب زمزم والحطيم قف قليلاً مكانك واسمع كلامى ورد جوابى .

فوقف الحارث يا سادة يا كرام وقال :

فقال عنترة :

أريد منك أنتبيع لى بهذا المهر الذى أنت راكبه وإلا فأهده لى إن كنت صاحبه وأعلم يا فتى أن الجميل عندى غالى وأن بعته لى تحظى بمديحى لك ومالى وتصير لى صديقاً وموالى .

قال الراوى فلما أن سمع الحارث من عنتر هذا الكلام تبسم وقال :

لـــو كنـــت سألتنى فيه من قبل أن تفعلوا بنا هذه الفعال لكنت أهديته لك ولكن يا فتى هذا جواد راكبه بالسعادة مقرون لأنه يطير بلا جنـــاح ، وأن كنت مـــا سمعت به فهذا الابجرين النعامة الذى ما أقتنى مثله فارس فى أرض قهامة ، وهو الـــذى ركب عليه الملوك مثل كسرى وقيصر ، وأبو هذا المهر يقال لـــه المرجوع وبه تضرب الأمثال فى سائر قبائل بنى يربوع ...

فقال عنترة :

يـــا فتى قد اشتريت منك هذا المهر بهذه الغنيمة وهذه يدى لك بالذمام وأن عارضك أحد من قومى جندلته بهذا الحسام ...

ثم تعـــاهدا على ذلك يا سادة يا كرام وأعطاه يـــده وحلف لـــه بالله العلى العظـــيم الوهـــاب وهو لا يصدق بذلك الخطاب ... فلما استوثق منه بالعهود وحلف لـــه بالإيمان نزل عن المهر وسلمه إليه باليد وأعطاه عنتر جواده ، وأمر بعد ذلـــك الغلمان أن يسوقوا الأموال والنسوان والعيان والعبيد وأمرهم بالعودة إلى الديـــار والأوطـــان ، فساقها العبيد وقد أقبلت عليهم الأفراح بعد الأتراح وعاد نســـاؤهم إلى صـــلاح ، وعاد عنتر وقد نال بالبجر غاية المرام وحصل على مناه ومنتهى المرام ... "

ويضـــع كتاب فن كتابه السيرة الشعبية جواد عنترة الابجر من الأسس الأولى التى تقوم عليها شخصية الروائية وترسم صورة البطل فيه فيقول :

" أكتملـــت للفارس العربى عدة الجلاد ومميزات الفروسية مما يذكرنا بسمات الفارس المعروف فى القرون الوسطى فى الأدب الأوربى فله سيف عزيز عليه بقطع كـــل شـــىء ولا يتـــلم حده شىء ذلك هو الضامى الذى صنع من قطعة شهاب سقطت من السماء ، وله فرس لا يدركها فرس تسابق الريح وتفهم مواقف الحرب والـــنزال وتـــألف صاحبها أشد الألف ، يتحير من رشاقتها وســـرعتها ومهارتها

الفرســـان ... تلك هى الابجر ، وله رفيق اتقن الحيلة وبلغ فى الذكاء الغاية ، ووصـــل القمـــة بين السلالين ، أسرع من الريح إذا جرى وأمهر من الشيطان إذا تـــنكر ... ذلك هو أخوه شيبوب ... وله رفقة سلاح يلازمونه فى معاركه ويحاربون تحت رأيته مثل عروة بن الورد وصعاليكه ، وله عزوة ينتسب إليها تلك هـــى قبيلة عبس وله حبيبه يناديها حين يخلو به الطريق فى الصحراء وينطق باسمها عند مواطن النزل ويحارب من اجلها فى سبيل أشرف المثل وأرفع الغايات تلك هى زوجته وابنة عمه عبلة " [1] .

فـــالدارس لأدب الأسطورة العربى يضع الفرس فى مكانة مرموقة من أدوات الفـــارس ولم يكن فى هذا إلا منطقياً مع أديب الأسطورة نفسه الذى أبدع تصوير موقـــف حصـــول البطل على فرسه وجعله يحصل عليه بفدية قبيلة كاملة ... وأروع مـــا لمسه أديب الأسطورة العربى هنا أن الفارس صاحب المهر لم يهزم وأنما تـــنازل عن فرسه كرماً ووفاء لقبيلته وبين فرسه وأمام صياح النساء وولولة الصبية يتنازل عن فرسه فى شهامة عربية صادقة ... ويبدع أديب الأسطورة فى وصف فرحة عنترة بحصوله على الفرس وهو يبدع نفس الإبداع بعد ذلك فى وصف حزنه لفقده ونتعرف على هذه الحادثة وعلى تحليل الدارس لها من كتاب فن كتابة السيرة الشعبية .

يعود مؤلف السيرة إلى وصف حياة عنترة الفارس الذى يخوض المعارك الكثيرة لينقذ فرسه الابجر الذى سرقه السلال المختلس بن ناهب ... وهنا يقف المؤلف ليرينا تطوراً جديداً حدث فى شخصية عنترة ، فبعد أن كانت عبلة هى المدار الأول لأحـــداث حياته ، نجده فى هذه المرحلة يساويها بسيفه ويحصانه كما يجب أن يفعل الفارس ...

---

(1) فن كتابه السيرة الشعبية لفاروق خورشيد ومحمود ذهنى .

يقول عنه مؤلف السيرة :

وما نام تلك الليلة ولا التفت إلى عبلة ، لأنه كان يحب جواده أكثر من حب عبـــــلة ... وقد ذكروا يا سادة يا كرام أن عبلة عنده أعز من روحه التى بين جنبه " .

وإذا كـــان عنترة الأسطورى قد ارتبط اسمه بجواده ، هذا الارتباط فأن شعر عنترة الحقيقى الشاعر العربى الجاهلى يذكرنا بارتباط آخر للرعب بخيولهم ، وبأثر هذه الخيول على حياتهم يقول عنترة العبسى شاعر المعلقات الجاهلى :

فلله عينا من رأى مثل مالـــك عقيرة قوم أن جرى فرســـان
فليتهما لم يجريا قيد غلـــوة وليتهما لم يرسلا لرهـــــان

ويشـــير عنـــترة بهذا إلى مصـــــــرع مالك بن زهير فى حرب داحس والغـــبراء ... وهـــى حرب اسالت الدماء بين بطون قبيلة قيس وعبس وذبيان وأدت على عدة معارك امتلأت بها كتب الأخبار وكتب الأدب ...

ويقول النويرى فى نهاية الأرب :

" حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ، وكان السبب الذى صاحبها أن قـــيس بـــن زهير وحمل بن بدر تراهنا على داحس والغبراء أيهما يكون له السبق وكـــان داحس فحلاً لقيس بن زهير والغبراء حجر أى فرس أنثى لحمل بن بدر ، فتواضعا الرهان على مائة بعير ... وكان فى طرف الغابة شعاب كثيرة ، فأكمن حمـــل بن بدر فى تلك الشعاب فتيانا على طريق الفرسين ، وأمرهما ان جاء داحس سابقاً أن يردوه عن الغابة ... ثم أرسلوهما ... فلما شارف داحس الغابة دونا من الفتية وثبوا فى وجه داحس فردوه عن الغابة وثارت الحرب بين عبس وذبيان ،

فبعث حذيفة بن بدر مالكاً إلى قيس بن زهير يطلب منه حق السبق فرفض قيس وأخذ الرمح فطعنه وقتله ، ثم قتل حذيفة مالك بن زهير وثارت الحرب "[1] .

ويذكر النويرى من الأيام التى سببتها داحس والغبراء يوم المريقب لبنى عبس على بنى ذبيان ، ويوم ذى حس لذبيان على عبس ويوم اليعسرية لعبس على ذبيان ويوم الهباءة لعبس على ذبيان ويوم الفرون ويوم قطن ويوم غدير قلبى ...

وفى يوم المريقب يقول الشاعر عنترة العبسى ...

ولقد علمت إذ التقت فرسانها يوم المرتقب ان طنك أحمق

ونستطيع أن ندرك إلى أى حد لعبت أسطورة الحيوان دورها فى أدب أديب الأسطورة العربى إذا أضفنا إلى كل هذا الذى قدمناه أساطير الحيوانات التى هى فى الأصل إنسان مسحور قد عبث به ساحر لئيم فحوله من الصورة الآدمية إلى الصورة الحيوانية ويأتى البطل فينقذه من هذه الصورة بفعل طيب ، تجد أن أديب الأسطورة العربى قد صال وجال فى هذا المضمار واستطاع استغلال أسطورة الحيوان استغلالاً جيداً وثرياً .

استغلها فى العمل الأسطورى التفسيرى فى حكايات عن الحيوانات نفسها لماذا كانت مؤخرة القرد حمراء ولماذا كان الدب بلا ذنب وهو فى هذا شارك فى إثراء الأساطير العالمية بمزيد من أسطورة التفسير المستمدة من محاولة فهم أشكال الحيوانات ويقول الكزندر هجرتى كراب :

حكاية الحيوان فى أبسط صورها حكاية شارحة أو مفسرة من حيث جوهرها أو قل أنها حكاية ترمى إلى شرح علة أو غاية[2] .

---

(1) نهاية الأرب للنويرى .

(2) علم الفولكلور لكراب .

واستغلها أديب الأسطورة العربي في العمل التعليمي أو في الفابولا التي لا شك أنها فاصلة في منطقته وأصيلة فيه وانتهت هذه المحاولات من أديب الأسطورة العربي قيمة متوجه هي كليلة ودمنه ويرد كراب على زعم ينفي بأن أصل هذه الأساطير إغريقية وأنها الأسبق زمناً بتحليل وافي يقول في أجزاء منه :

" الذي يثير الشك لدينا في رجوع الخرافات إلى أصل إغريقي أو هندي هو أن أيسوب الذي يقال أنه أخترع الخرافات الإغريقية لم يكن في الحقيقة إغريقياً بل لم يكن من رعايا الإغريق في القارة الأوروبية وأغلب الظن أنه كان رقيقاً سامياً يشتغل بالكتابة في أبوينا . أضف إلى ذلك أن هذا النوع من القصص نجده في أقدم اجزاء العهد القديم الأمر الذي يحملنا على الظن أن هذا النوع القصصي جميعاً قد وصل إلى الإيونيين من الشرق السامي وأنه أرتحل كذلك من الشرق السامي إلى الهند مع ما ارتحل إليها من ثقافة ما بين النهرين " .

وأستغلها أديب الأسطورة العربي كذلك في الحكايات الخرافية التي تجعل من الحيوان هادياً ومرشداً فحقق بذلك ثروة ضخمة في هذا اللون وقد نفينا من قبل الأثر الطوطمي الذي أراده كراب لهذه الحكايات الذي اراده كراب لهذه الحكايات وحاولنا أن نقرر أن الهداية عن طريق الحيوان لها ظل من التربية الإسلامية التي تريد أن تقرر للإنسان وجوب أن يفهم عجزه أمام قدرة الله صانعة كل شيء ...

واستغلها أيضاً في سيرة العظيمة كجزء لا يتجزء من نسيجه الأدبي حيث يصبح الحيوان شريكاً للإنسان في بطولته وفي مصيره ، وحيث تمتزج القيم الخالصة لتتجد لها نماذج في ألوان من الحيوان كفروسية الخيل ووفاء الكلب ورقة الغزالة وشجاعة الأسد وخبث الحية .

ثم اســـتطعنا أن نـــدرك أن مكانة الحيوان عند العربى أثرت حتى فى أحداث حـــياته مما خلق مجالاً لأديب الأسطورة العربى ليتحرك فى هذا المجال فى كل ألوان الأسطورة والفابولا والحكاية الخرافية والحدوتة الشعبية والمثل والسيرة الشعبية فى ثراء حقيقى مكنه من أن يعبر عن معطيات حياته ونفسه تعبيراً أدبياً رائعاً أثرى بلا شك أدب القص العالمى ....

******